مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

المنهج القرآني في بناء الوجدان عبر الدعاء دِراسة تأصيلية في الأبعاد الروحية

أ.م.د جواد اسحاقيان درجة
جامعة طهران كلية المعارف والفكر الإسلامي
eshaghian.dorcheh@ut.ac.ir
م.م علي حسين لفته الزيداوي
طالب دكتوراه في كلية المعارف والفكر الإسلامي/ جامعة طهران/ ايران

المُلخص

يتقصى هذا البحث المنهج القرآني في بناء الوجدان عبر الدعاء دراسة تأصيلية في الأبعاد الروحية، مستعرضاً دور الدعاء كمرتكز جوهري في صياغة الحس الروحي العميق، باعتباره الصلة الحية التي تربط العبد بخالقه، حيث يستهل المبحث الأول بتأصيل المرتكزات الأساسية لهذا البناء بدءاً من الدلالات اللغوية والقرآنية، وصولاً إلى تعميق الوعي بالذات وتحقيق مقام الإفتقار القلبي، كما يسلط الضوء على آليات تعزيز الأمان النفسي وبث السكينة في الأنفس المضطربة من خلال المناجاة الصادقة، ويبحث في منهجية تهذيب العواطف الإنسانية الكبرى من حب وخوف ورجاء لإرساء التوازن الوجداني، فضلاً عن استعراض دور الدعاء في تفعيل الرقابة الذاتية وإيقاظ اليقظة الروحية المستمرة، ليخلص البحث إلى أن الدعاء يتجاوز كونه مجرد طلب للمنافع، ليصبح عملية إعادة هيكلة شاملة للروح، تجعلها أكثر شفافية ونقاءً واتصالاً بالحق سبحانه.

الكلمات المفتاحية: (المنهج القرآني، بناء الوجدان، الدعاء، الأبعاد الروحية).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

The Quranic approach to building conscience through supplication: A foundational study in spiritual dimensions

Dr. Jawad Ishaqian, Degree
University of Tehran, Faculty of Islamic Knowledge and Thought
Email :eshaghian.dorcheh@ut.ac.ir
Assistant teacher. Ali Hussein Lafteh Al-Zaidawi
PhD candidate at the Faculty of Islamic Knowledge and Thought, University of Tehran, Iran

Abstract

This research explores the Quranic approach to cultivating inner peace through supplication (du'a), offering a foundational study of its spiritual dimensions. It examines the role of supplication as a crucial element in shaping profound spiritual awareness, considering it the living connection between the servant and their Creator. The first section begins by establishing the fundamental pillars of this approach, starting with linguistic and Quranic meanings, and culminating in deepening self-awareness and achieving a state of heartfelt dependence. It also sheds light on mechanisms for enhancing psychological security and instilling tranquility in troubled souls through sincere supplication. Furthermore, it explores the methodology for refining major human emotions—love, fear, and hope—to establish emotional balance. The research also examines the role of supplication in activating self-discipline and awakening continuous spiritual awareness. Ultimately, the research concludes that supplication transcends the mere request for benefits, becoming a comprehensive process of spiritual restructuring, making the soul more transparent, pure, and connected to God Almighty.

Keywords: (Quranic approach, cultivating inner peace, supplication, spiritual dimensions)

المُقدمة

الحمدُ لله رب العالمين والصَلاة والسَلام على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله الطاهرين...

يُعد تشكيل الوجدان الإنساني من عمقه الجوهري الغاية الأسمى التي سعت إليها الرسالات السماوية من خلال بناء الذات من الداخل قبل تقويم مساراتها السلوكية الظاهرة،

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

وهنا يتجلى المنهج القرآني في بناء الوجدان عبر الدعاء كأسمى المناهج الروحية التي تتماهى فيها لغة الروح مع نبض القلب لتتجاوز محدودية اللفظ نحو رحابة المعنى واتساع الرؤية الإلهية حيث إن تأصيل الأبعاد الروحية في النفس يقتضي مساراً فريداً يزاوج بين الإقرار بالفقر البشري المطلق والاستمداد من الغنى الإلهي المحض وهو ما يوفره الخطاب الدعائي الذي يؤسس لمدرسة إيمانية متكاملة تعمل على إعادة ترتيب المنظومة الوجدانية وتهذيب النزعات النفسية المتصارعة فمن خلال أسرار المناجاة الصادقة والنداء الخفي يستطيع الإنسان الانعتاق من أسر المادية الضيقة والارتقاء نحو آفاق اليقين والسكينة الروحية وتتضاعف أهمية هذه الدراسة في ظل حاجتنا المعاصرة لاستعادة التوازن المفقود وسط ضجيج الحياة المادية المتسارع مما دفعنا لتقديم قراءة تأصيلية في نصوص القُرآن الكريم وفيوضات نهج البلاغة لاستنباط المعالم الكبرى لهذا البناء الروحي المتين سعياً لتقديم رؤية منهجية تحول الدعاء من مجرد طقس عابر إلى حالة وجدانية دائمة وقوة روحية فاعلة تتصل بمصدر الوجود المُطلق.

المبحث الأول: دعائم تشكيل الوجدان في آفاق الخطاب الدعائي

يمثل الدعاء القاعدة الأساسية التي تعيد صياغة الوجدان البشري من خلال ربط المشاعر الإنسانية بالقيم المُطلقة، ويمكن بيان هذا المبحث من خلال:

المطلب الأول: مَفهوم الدعاء في اللغة والإصطلاح القرآني

ولهذا المطلب مقصدان هما:

أولاً: مَفهوم الدعاء في اللغة: إنّ الدعاء مأخوذ مادة:"دعو: الدال والعين والحرف المُعتل أصل واحد وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، تقول دعوت أدعو دعاء" (ابن فارس، ب.ت، ٢: ٢٧٩؛ ابن منظور، ب.ت، ١٩: ٤٠٥؛ ابن منظور، ب.ت، ١٤: ٤٦٥؛ المصطفوي، ١٤١٧هـ، ٣: ٢١٨).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

إلا إنّ صاحب اللسان فصل أكثر قائلاً:"والدُّعاءُ، بالضَّمِّ مَمْدوداً؛ الرَّغْبَةُ إلى اللَّهِ تعالى فيمَا عنْدَه مِن الخيْرِ والابْتِهال إليه بالسُّؤَالِ؛ ومنه قوْلُه تعالى:﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً** ﴾ (سورة الأعراف: ٥٥؛ ابن منظور، ب.ت، ١٩: ٤٠٥).

فالمادة في هذا اللفظ انّ الأصل وحد زهو طلب شيء لأن يتوجّه اليه أو يرغب اليه أو يسير اليه، ففي كلّ مورد بحسبه، وهذا المعنى قريب من الندب ويعبّر عنه بالتركيّة بكلمة – چاغرماق، وبالفارسيّة بكلمة – دعوت كردن وخواندن، ومفهوم النداء فيه جهة المُخاطبة فقط، وهو مطلق الصياح به، وهو مقدّم على الدعاء، كما انّ القصد والإرادة قبل النداء (المصطفوي، ١٤١٧هـ، ٣: ٢١٨).

ثانياً: مَفهوم الدعاء في المصطلح القرآني: إن الدعاء هو"وسيلة لمعرفة الخالق ومعرفة صفاته الجمالية والجلالية، ووسيلة أيضا للتوبة من الذنب، ولتطهير الروح، وسبب أيضاً لأداء الحسنات للجهاد والجد والإجتهاد إلى مُنتهى الإستطاعة" (مكارم الشيرازي، ب.ت، ١١: ٣٢٩).

وذهب السيد الطباطبائي(رحمه الله)، قائلاً: فإن حقيقة الدعاء والسؤال هو الذي يحمله القلب ويدعو به لسان الفطرة، دون ما يأتي به اللسان الذي يدور كيفما أدير صدقًا أو كذبًا جدًا أو هزلا حقيقة أو مجازًا، ولذلك ترى أنه تعالى عد ما لا عمل للسان فيه سؤالاً، قال تعالى:﴿ **وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾ (سورة إبراهيم: ٣٤؛ الطباطبائي، ب.ت، ٢: ٣٣).

وإنّ العدة في ذلك الاخلاص في دعائه لله تعالى وهو مواطات القلب اللسان والإنقطاع عن كل سبب دون الله والتعلق به تعالى، ويلحق به الخوف والطمع والرغبة والرهبة والخشوع والتضرع والاصرار والذكر وصالح العمل والايمان وأدب الحضور وغير ذلك" (الطباطبائي، ب.ت، ٢: ٣٥).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

وقيل إن الدعاء هو الإعتراف بالعبوديّة والذلّ لله سبحانه وتعالى (الحائري الطهراني، ١٣٣٧ش، ٩: ٢٧٠؛ البحراني، ب.ت؛ المازندراني، ١٤٢١هـ، ١٠: ٣٣٧؛ المازندراني، ١٤٢١هـ، ٢: ٧٦٥؛ مكارم الشيرازي، ب.ت، ١: ٣٢٩-٣٣٣).

فالإنسان ينال بالدعاء لياقة أكبر للحصول على فيض الباري تعالى، وواضح أن السعي للتكامل ولكسب مزيد من اللياقة هو عين التسليم أمام قوانين الخليقة **(مكارم الشيرازي، ب.ت، ١: ٥٣١)**.

وخلاصة ما تقدم إنّ الدعاء في القُرآن ليست مُجرد كلمات عابرة، بل هو من أرقى نداء الوجود للواجد، ويعد قمة الفاعلية الروحية التي تعيد ربط العبد بالأسباب العليا، نحو قوله تعالى:﴿ **قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا** ﴾ (سورة الفرقان: ٧٧). أي ما يصنع أو لا يكترث بكم﴿ **لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ** ﴾، عبادتكم له أو دعاؤه إياكم إلى الذين:﴿ **فَقَدْ كَذَّبْتُمْ** ﴾، بما أعلمتكم به إذ خالفتم﴿ **فَسَوْفَ يَكُونُ** ﴾، جزاء تكذيبكم أو أثره ﴿**لِزَامًا** ﴾، لازما لكم في الآخرة (شبر، ١٩٦٦م، ٣٥٣).

وفي هذه الحالة هو أن يستخدم الإنسان كل قدرته، وقوته واستطاعته في عمله، ويؤدي بأعلى درجة من الجد والاجتهاد، ثم يرفع يديه ويوجه قلبه إلى بارئه بالدعاء (مكارم الشيرازي، ب.ت، ١١: ٣٢٩).

المطلب الثاني: الوعي بالجوهر الإنساني وترسيخ عبودية الافتقار المطلق

تتمثل فاتحة البناء الروحي في استبصار المرء لعمق عجزه وتلاشي كبريائه أمام جلال الخالق حيث يغدو هذا الافتقار منطلقاً للتحول الوجداني ويمكن بيان ذلك على النحو الآتي:

أولًا: حتمية الافتقار الذاتي واستمرارية الحاجة إلى الخالق: يُؤصل القُرآن الكريم لمَفهوم الفقر الوجودي بوصفه حاجة ذاتية وملازمة للكينونة الإنسانية التي لا تستغني عن فيض خالقها في كل لحظة ويمكن استنباط ذلك من قوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ (سورة فاطر: ١٥).

يعد افتقار المخلوق إلى خالقه ضرورة وجودية مطلقة تلازم كينونته تماماً كحاجة المعلول إلى علته الموجدة والمسبب إلى سببه المستمر في إمداده بالبقاء،(مغنية، ١٩٨١م، ٦: ٢٨٤)، وقيل إنّ"افتقار المخلوق إلى خالقه دون العكس قضية ضرورية الصدق واليقين (الطباطبائي، ب.ت، ١٧: ٣٤)، ثم تنبثق هذه الضرورة من صميم الذات الإنسانية وماهيتها التكوينية تماماً كما تلازم الزوايا الثلاث حقيقة المثلث وعلى هذا يتبلور المقصد القرآني في دفع الإنسان لتفويض جميع شؤونه إلى الخالق والتضاؤل أمام عظمته بالتجرد من كوامن الكبر والزهو مهما بلغت قوته المادية أو سلطانه الدنيوي وهذا المسلك من الافتقار يعد غاية منشودة ومقاماً محموداً عند الله والعقلاء على حد سواء كون استشعاره يمثل قوة دافعة نحو فعل الخير وعاصماً وجدانياً يحجز النفس عن غواية الشر،(مغنية، ١٩٨٣م، ٥٧٥).

يكشف التتبع الدقيق للآية المُباركة عن رؤية كونية عميقة تحدد موقع الكينونة الإنسانية من خالق الوجود وتزيح الستار عن جوهر العلاقة بين الفناء والبقاء حيث يتفرد الحق سبحانه بكونه القائم بذاته والغني المطلق عما سواه في حين تظل البشرية وسائر الموجودات في حالة ارتهان دائم وافتقار وجودي لا ينفك عن شؤونها كافة، بحيث لو انقطع فيض المدد الإلهي لحظة واحدة لاستحالت هذه الكائنات عدماً محضاً فبقدر ما يتصف الخالق بالاستغناء التام يمثل البشر الفقر المُطلق وبقدر قيامه بذاته ووجوب وجوده اللامتناهي في الذات والصفات تظل الخلائق كُلها قائمة به ومستندة في بقائها إلى قيوميته وهيمنته الوجودية،(مكارم الشيرازي، ب.ت، ١٤: ٥٥).

وصفوة القول إن هذه الآية الكريمة تهدف إلى تبديد أوهام الأنا وتأصيل قيم التواضع الوجودي في النفس بحيث يوقن الإنسان أن كماله الحقيقي لا يتحقق إلا بالارتباط الوثيق بمصدر الغنى المطلق والانعتاق من أسر الاستغناء الزائف.

ثانيًا: سيمياء الانكسار الوجداني وتجليات الافتقار: يستعرض البيان القرآني مشهداً مهيباً يصور خلجات نفوس الأنبياء (عليهم السلام) في لحظات تجردهم التام من حولهم وقوتهم ولجوئهم المطلق إلى فيض العطاء الإلهي. ويتجسد هذا المفهوم بعمق في المُناجاة

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

الموسوية الخالدة﴿ **فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٍ**﴾،(سورة القصص: ٢٤)، إن هذا النص لا يُمثل مجرد طلب مادي، بل هو إقرار فلسفي ووجودي بأن الإنسان، مهما بلغت رتبته الكمالية، يظل في حالة احتياج بنيوي لكل تجليات الخير التي ينزلها الله، سواء كانت هذه النعم جليلة وعظيمة في نظر الخلق، أو كانت يسيرة ومحدودة؛ فالمؤمن الحقيقي يرى نفسه فقيراً لذات العطاء لا لحجمه (الطوسي، ١٤٠٩هـ، ٨: ١٤٣؛ الطبرسي، ١٤١٨هـ، ٢: ٧٣٨).

وهذا الإفصاح عن الفقر ليس علامة ضعف، بل هو إظهار لصدق العبودية وتفويض الأمر بالكلية إلى مسبب الأسباب،(الحائري الطهراني، ١٣٣٧ش، ٨: ١٣٢)، ومن ثمار هذا الصدق الوجداني أن العناية الإلهية لم تتأخر؛ فما إن أتم موسى (عليه السلام) بث لوعته واحتياجه، حتى بدأت خيوط الفرج تُنسج، فجاءت ابنة شعيب لتمهد له طريق السكن والأمان والضيافة في بيت نبي الله شعيب (عليه السلام)، حيث تحول قلق الغربة وخوف المطاردة إلى طمأنينة ويقين بقوله تعالى:﴿ **قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾،(سورة القصص: ٢٥؛ المصطفوي، ١٤١٧هـ، ١١: ٢٠٨).

وإذا ما تعمقنا في المسيرة الروحية لنبي الله مُوسى(عليه السلام)، نجد أن القُرآن الكريم وثّق محطتين من أرقى محطات أدب الدعاء المحطة الأولى كانت في مصر عقب حادثة القبطي، حيث كان الندم يملأ جوانحه، فاستخدم لغة التصريح المباشر بالمغفرة:﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي** ﴾،(سورة القصص: ١٦)، وهنا يبرز الوعي النبوي الذي يدرك أن الاستغفار مقام يحبه الله ويطلبه لذاته، كما جاء في قوله سبحانه:﴿ **وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾،(سورة البقرة: ١٩٩)، وهو المنهج الذي سار عليه الأنبياء جميعاً من نوح فمن تبعه (عليهم السلام)، أما المحطة الثانية، فكانت عند "ماء مدين" بعد أن بذل جهده في سقاية الأنعام لابنتي شعيب، ثم التجأ إلى الظل مجهداً وجائعاً ووحيداً، وهنا، نلحظ تغيراً في أسلوب الطلب؛ إذ لم يصرح بحاجته المادية كالغذاء أو السكن بشكل مباشر، بل اكتفى بعرض وصف حاله(فقير)، وترك لله نوع العطاء(الخير)، وإن سكوته عن تسمية حاجته بالعين هو

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

قمة الأدب الرفيع؛ إشارة إلى أن حوائج الدنيا ومتاعها العابر ليس لها قدر يُذكر في حضرة القدس الإلهي، فما كان يهمه هو رضاء الله وقبوله،(الطباطبائي، ب.ت، ٦: ٢٧٩).

وخلاصة ما تقدم تتجاوز هذه النصوص حدود القصة التاريخية لتؤسس لما يمكن تسميته بالمناعة الروحية؛ حيث تعمل على إعادة صياغة المنظومة النفسية للإنسان لتواجه القلق الوجودي وهواجس العوز، من خلال إحلال الأمن الرباني محل الارتهان للمادة، مما يحول قلب المؤمن إلى حصن منيع لا تخترقه اضطرابات الدنيا أو مخاوف الفقد.

ثالثًا: الاعتراف بالضعف البشري كمدخل للتزكية: يُرسخ النص القرآني ثقافة الإقرار بالقصور الذاتي والافتقار الأخلاقي، مُؤكداً أن الاستقامة النفسية مرهونة بالارتباط الوجداني بالرحمة الإلهية التي تعمل ككابح لجموح الغرائز ومنظم للاختلاجات النفسية، نحو قوله تعالى:﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾ (سورة يوسف: ٥٣).

حيث ماهية الكائن البشري في كونه مزيجاً بين النزعة الغريزية والوعي العقلاني والوازع الديني، فمن حيث طبيعته البدنية ونفسه الأمارة ينجذب نحو الانغماس في اللذات الحسية والشهوات غافلاً عن ضوابط المنطق أو أحكام الشريعة، غير أن جوهره العاقل وإيمانه الراسخ يعملان كقوة كابحة تُلزم النفس بالانصياع لمقتضيات الشرع ومبادئ العقل كلما جنحت نحو التجاوز أو الانحراف، وبناءً عليه فإن المرء الذي يستسلم لهواه ويترك لنفسه العنان ينسلخ من حقيقته الإنسانية ليصبح كائناً غريزياً في جلباب بشر، بل إن الأنعام قد تفوقه منزلة لكونها غير مُكلفة بتبعات الوعي ولا تقع تحت طائلة المسؤولية الأخلاقية، ولذا قال تعالى:﴿ **إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** ﴾،(سورة الفرقان: ٤٤)، وقد يضعف الإنسان بعض الأحيان أمام نفسه وشهوته ولكن المُؤمن العاقل يعود بعدها إلى رشده ويتوب من هفوته فيغفر له ويصفح عنه لأن اللَّه غفور رحيم،(مغنية، ١٩٨١م، ٤: ٣٢٥).

وقيل إنما أراد الدعاء والمُنازعة والشهوة ولم يرد العزم على المعصية وهؤلاء يبرئ نفسه مما يعتري مثله طباع البشر ثم إن هذا الكلام من كلام المرأة لا كلام يُوسف(عليه السلام)، وإنه مسوق على الكلام المحكي عنها قوله تعالى:﴿ **قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ**

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ (سورة يوسف: ٥١)، وإلى قوله﴿ **بِالسُّوءِ** ﴾ (سورة يوسف: ٥٣؛ ابن شهرآشوب، ب.ت، ١: ٢٣٤؛ البحراني، ب.ت، ٣: ١٧٣).

إما قوله تعالى:﴿ **إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾ (سورة يوسف: ٥٣)، معناه أنّ النفس (مغنية، ١٩٨١م، ٤: ٣٢٥)، آية نفس لا تسلم من العيوب إلا نفسا عصمها الله من الخطايا والذنوب كنفوس الأنبياء والأئمة الأطهار(عليهم السلام)، وان لا يصر المذنب على ذنبه ويعرض أبدا عن ربه، حيث قال الإمام علي(عليه السلام):"أشد الذنوب ما استهان به صاحبه" (نهج البلاغة، ١٤١٢هـ، ٤: ٨١)، أي أصر عليه، ولم يستغفر الله منه (مغنية، ١٩٨١م، ٤: ٣٢٥).

وتأسيساً على ما سلف، فإن المقصد الأسمى للنص الشريف يكمن في إرساء دعائم التواضع الوجداني، وذلك من خلال المكاشفة الصادقة بهشاشة الإرادة الإنسانية عند مواجهتها للضغوط الباطنية والنزعات الفطرية، مما يدفع الذات نحو الالتجاء الدائم للقوة الإلهية كعاصم وحيد من الزلل.

رابعًا: فلسفة العزة في فضاء العبودية المُطلقة: وردّ عن الإمام علي(عليه السلام)، نصٍ يَربط الإمام(عليه السلام)، علي بين كمال العزة الإنسانية وحقيقة الخضوع لله، نحو قوله(عليه السلام):"إلهي كفى لي عزًا أن أكون لك عبدًا وكفى بي فخرًا إن تكون لي ربا أنت كما أحب فاجعلني كما تحب" (الطوسي، ب.ت، ٤٢٠؛ النيسابوري، ب.ت، ١٠٩).

إذ تتحدد قيمة الإنسان الحقيقية بما يتقنه ويقدمه من فضل وإحسان، بينما تظل بقية سني العمر مهدورة ما لم تُستثمر في كمال الذات، فالسعادة والنجاة رهينة بمعرفة المرء لقدر نفسه ووقوفه عند حدوده، وفي مدرسة الأدب العلوي تبرز معادلة الاستغناء والاحتياج في قوله (عليه السلام) بأنك إذا استغنيت عن المرء غدوت نظيراً وكفؤاً له، وإذا تفضلت عليه أصبحت أميراً وسيداً في حقه، أما إذا احتجت إليه فقد صرت أسيراً ورهيناً لفضله،(الميلاني، ١٤٢٦هـ، ١: ٢٩١)، ومن هنا ندرك أن الإيمان يعزز من منزلة الفرد ويضاعف رصيده المعنوي

والوجودي، الأمر الذي ينعكس بجلاء على صلابة الشخصية ورفعتها النفسية، وللإيمان في هذا الصدد مفاعيل وآثار تربوية جمة يمكن الوقوف على أهمها (الطوسي، ١٤٠٠هـ، ١٤٠):

١- **آليات الانضباط الذاتي واللساني:** حيث يمنح الإيمان النفس طاقة استثنائية للسيطرة على النوازع الداخلية، مما يمكّن المرء من كتمان المصائب والهموم، والترفع عن إبداء الأوجاع أو التباهي بأعمال الخير خشية السقوط في فخ الرياء، وقد امتدح الحق سبحانه أولئك الذين يروضون انفعالاتهم ويتحكمون في ردود أفعالهم بقوله :﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ** ﴾،(سورة آل عمران: ١٣٤)، كما يتجلى أثر الإيمان في تهذيب المنطق وصون اللسان، فلا ينطق المؤمن بما يسخط الله لأنه يعيش حالة من التدبر الدائم قبل إخراج الكلمة، بخلاف من غاب عنه اليقين،(الصدوق، ب.ت، ٤٢٠)، وقد ورد في المأثور الشريف أن لسان المؤمن يتبع قلبه، فإذا أراد نطقاً فحص مقصده في وجدانه ثم أمضاه، بينما لسان المنافق يسبق جنانه، فيتكلم بغير روية أو بصيرة،(نهج البلاغة، ١٤١٢هـ، ٢: ٩٤).

٢- **الصمود والبسالة:** إذ يرفد الإيمان وجدان المؤمن بطاقات هائلة من الثبات والشجاعة في ميادين المواجهة، مما يجعله قادراً على ترويض نزعات النفس التي تميل بطبعها نحو السكون والراحة وطلب العافية، وهو ما تجلى واقعاً في انتصار المُسلمين يوم بدر، حيث غلب يقينهم قلة عددهم وتواضع عدتهم، فكان الإيمان هو القوة الضاربة التي حسمت المعركة لصالح الحق.

٣- **الرؤية البصيرة والوعي الكوني:** ومن مقتضيات الإيمان العميقة أنه يمنح الفرد نظرة شمولية وواعية للمحيط، فلا تستلب لبه مغريات الدنيا أو زخارفها العابرة، بل يقنع منها بالكفاف ولا يطغيه الغنى أو يبطره الترف، وفي هذا المعنى يؤكد أمير المؤمنين (عليه السلام) بأن رؤية المؤمن للدنيا هي رؤية اعتبار واستبصار، فهو لا يأخذ منها إلا بقدر الضرورة، ويتلقى نداءاتها بذائقة ترفض الانغماس في ماديتها(نهج البلاغة، ١٤١٢هـ، ٤: ٨٦)، ويجسد هذا المنطق الرفيع ما نقله سويد بن غفلة حين دخل على الإمام (عليه السلام) في بداية خلافته، فرآه جالساً على حصير في بيت يخلو من متاع الدنيا، فلما سأله عن سبب هذا

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

التقشف وهو يملك بيت المال، أجابه الإمام بأن اللبيب لا يسعى لتأثيث دار هي في حقيقتها معبر وارتحال، مؤكداً أن الاستعداد الحقيقي يكون لدار المقر التي نُقل إليها خير المتاع وإليها يكون المصير،(ابن فهد الحلي، ب.ت، ١٠٩).

وبناءً على ما تقدم، نخلص إلى أن جوهر العزة الإنسانية يكمن في التحرر المطلق من الارتهان للخلق، والانضواء الكلي تحت لواء الخضوع لله وحده، مما يحقق للفرد سيادته النفسية وكرامته الوجودية.

المطلب الثالث: آليات تعزيز الاستقرار النفسي وتجليات السكينة الوجدانية،

يعمل الدعاء كدرع حصين يمنح الذات توازناً ثابتاً في مواجهة تقلبات الوجود ومخاوف العوز المادي، ويمكن تفصيل هذا المطلب وفق المحاور الآتية:

أولاً: طمأنينة الذكر وجدوى الاتصال الوجودي: إذ يؤصل النص القرآني لحقيقة أن الاستقرار القلبي لا يتحقق بمعناه الشامل إلا عبر الاتصال بمصدر الوجود المطلق في قوله تعالى :﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾،(سورة الرعد: ٢٨)، فالإطمينان هو حالة من السكون والاستقرار التي تركن إليها النفس (الفراهيدي، ١٤٠٩هـ، ٧: ٤٤٢، الجوهري، ١٤٠٧هـ، ٦: ٢١٥٨، ابن فارس، ب.ت، ٣: ٤٢٢)، ويظهر سياق الآية أن طمأنينة القلب بذكر الله هي جوهر الإنابة وهداية الله لمن استعد لها، بخلاف الفسق الذي يستعقب الضلال كما في قوله تعالى:﴿ **وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ** ﴾،(سورة البقرة: ٢٦).

وقوله:﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾،(سورة الصف: ٥)، فالإيمان ليس مُجرد إدراك ذهني جاف قد يجامع الجحود كما في قوله:﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ** ﴾،(سورة النمل: ١٤)، بل هو حالة من المطاوعة والقبول القلبي الذي يوجب التسليم لآثار الحق في السلوك والجوارح (الطباطبائي، ب.ت، ١١: ٣٥٤).

ومن هنا يعد الاطمئنان من أسمى مراتب اليقين حيث تركن النفس للخالق وحده، وهو ما جسده الإمام زين العابدين (عليه السلام) في مناجاته حين قال :اللهم إني إليك أفر ومنك

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

أخاف وبك أستغيث وإياك أرجو ولك أعود وإليك ألجأ وبك أثق وإياك أستعين وبك أؤمن وعليك أتوكل) الإمام علي بن الحسين، ١٤١٨هـ، ٢٦٤)، وخلاصة ذلك أن ذكر الله هو المعيار الوحيد لإستقرار الضمائر.

ثانياً: تجليات المدد الإلهي في أوقات الشدة: حيث يصور القرآن السكينة بوصفها هبة لدنّية تتنزل لتثبيت القلوب عند المحن في قوله تعالى:﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ** ﴾،(سورة الفتح: ٤)، والمقصود بها هنا هو الرضا واليقين الواعي،(الكاشاني، ١٤٢٣هـ، ٦: ٣٧٤، شبر، ١٩٦٦م، ٤٧٨)؛ لأن تجارب الحياة أثبتت أن طمأنينة الجاهل وهمية وتؤدي للهلاك، بينما طمأنينة المؤمن تزيد ثباته وقوته في دينه (مغنية، ١٩٨١م، ٧: ٨٤)، وقد أكد الإمام الصادق(عليه السلام) أن السكينة المذكورة في الآية هي جوهر الإيمان وثمرته،(الكليني، ١٣٦٣ش، ٢: ١٥)، مما يثبت أنها مدد غيبي يحمي النفس من الاضطراب.

ثالثاً: الكفاية الربانية كضمانة وجودية: ورد في الذكر الحكيم استفهام تقريري يمنح الوجدان أقصى درجات الحماية في قوله تعالى:﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾،(سورة الزمر: ٣٦)، وبالرغم من أن الآية نزلت في حق النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لتقوية قلبه أمام كيد المشركين(مغنية، ١٩٨١م، ٦: ٤١٦)، إلا أنها تمثل بشرى لكل السائرين في طريق الحق، خاصة من يعيشون حالة الاستضعاف أو التهديد، فهي تمحو الآثار النفسية للصدمات وتزرع الأمل والثبات في الروح، فمعية الله تطرد كل خوف مادي،(مكارم الشيرازي، ب.ت، ١٥: ٨٦)، وخلاصة المقام أن الآية تغرس الاكتفاء الروحي بالله وتطهر النفس من هواجس المستقبل.

رابعاً: الأنس بالله وتبديد وحشة الانفراد: يؤكد الإمام علي (عليه السلام) أن الخالق هو الصاحب الحقيقي في قوله :اللهم إنك آنس الآنسين لأوليائك وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك (نهج البلاغة، ١٤١٢هـ، ٢: ٢٢١)، فالأنس بالله عند الأولياء يفوق كل ألفة بشرية، وهو حضور يغني العبد ويكفيه،(نهج البلاغة، ١٤١٢هـ، ٢: ٢٢١)، حيث يجد الصالحون

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

في مناجاته والعزلة به لذة وطمأنينة تزيل كدر الوحشة،(مغنية، ١٤٢٧هـ، ٣: ٣٢٧، الشيرازي، ب.ت، ٣: ٣٩٢).

فالنص يُرسخ مَفهوم الصداقة الإلهية التي تملأ فراغ الذات وتطرد وحشتها.

المطلب الرابع: آليات تهذيب المنظومة العاطفية وتوازن دافعية الحب والخوف والرجاء

يهدف الخطاب الدعائي والقرآني إلى إحداث توازن وجداني دقيق يجمع بين طاقة المحبة وهيبة الخشية وتفاؤل الرجاء لصياغة شخصية سوية ومستقرة، ويمكن بيان تفاصيل هذا المطلب وفق المحاور الآتية:

أولًا: حورية الحب الأسمى وأثره في التسامي الروحي: يُحدد القُرآن قمة التعلق الوجداني الذي يتجاوز كل الماديات، نحو قوله تعالى:﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ** ﴾،(سورة البقرة: ١٦٥).؛ لأنهم لا يشركون أحدا في طاعته، والثقة به، والتوكل عليه، أما غير المُؤمنين فيثقون بالعديد من الأنداد، ويشركونهم مع الله في الطاعة، وطلب الخير، ودفع الشر (مغنية، ١٩٨١م، ١: ٢٥٥).

وعند هذا يسلم العبد إراداته واستقلاله إلى الله تعالى كما هو من شؤون الحب والعبودية الخالصة، فينضوي تحت لواء الحق ويدخل في ولايته، كما يقول عزوجل:﴿ **وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (سورة آل عمران: ٦٨)، أما قوله تعالى:﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٧)، فيجد حينئذ روحا أخرى ويحيا حياة جديدة ويشرق في قلبه نور الحقيقة، فتتفتح له طرق السعادة ليشق مسيرته الكريمة بين المُجتمع ، قال تعالى:﴿ **أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ** ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٢)، وقال تعالى:﴿ **أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ** ﴾، (سورة المجادلة: ٢٢).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

وفي آية أخرى يزمع تعالى إلى كيفية حصول هذا النور فيقول:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ** ﴾ (سورة الحديد: ٢٨).

وقد فَسر الايمان بالرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، وفي آية أخرى بالتسليم له واتباعه،

فقال:﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ (سورة آل عمران: ٣١؛ الطباطبائي، ب.ت، ٧٣؛ الطباطبائي، ب.ت، ١: ٤٠٧).

وقيل" لأنهم أصحاب عقل وإدراك، يفهمون أن الله سبحانه مصدر كل الكمالات، وهو وحده اللائق بالحب، ولا يحبون شيئا آخر إلا من أجله، وقد غمر الحب الإلهي قلبهم حتى أصبحوا يرددون مع أمير المُؤمنين علي(عليه السلام):"فهبني صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك" (الطوسي، ١٤١١هـ، ٨٤٧؛ ابن طاووس، ١٤١٤هـ، ٣: ٣٣٥)، فالحب الحقيقي يتجه دائما نحو نوع من الكمال، فالإنسان لا يحب العدم والنقص، بل يسعى دوما وراء الوجود والكمال، ولذلك كان الأكمل في الوجود والكمال أحق بالحب وتُؤكد أن حب المُؤمنين لله أشد من حب الكافرين لمعبوداتهم (مكارم الشيرازي، ب.ت، ١: ٤٧٢).

وخلاصة ما تقدم إن توجه طاقة الحب الكبرى نحو المصدر الأول للجمال والكمال.

ثانيًا: هندسة التوازن العاطفي بين الرغبة والرهبة: وردّ في الذكر الحكيم حال العابدين ويصفهم كنموذج يجمع بين الرغبة في الرحمة والرهبة من العدل، نحو قوله تعالى:﴿ **إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٠).

فقيل في شأن هذه الآية المُباركة للرغبة والرهبة، رغبة في الثواب، ورهبة من العقاب (الطبرسي، ١٤١٥هـ، ٧: ١١٠)، وقيل لعل المُراد الرغبة في الطاعة لا في الثواب والرهبة من المعصية لا من العقاب لإرتفاع مقام الأنبياء عن ذلك (الفيض الكاشاني، ١٤١٦هـ، ٣: ٣٥٣) قال أمير المُؤمنين(عليه السلام)، إلهي ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعًا في جنتك؛

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك (ابن ميثم البحراني، ١٣٦٢ش، ١: ٨٠)، وقيل راغبين في ثوابنا وراهبين من عقابنا خاضعين (شبر، ١٩٦٦م، ٣٢١).

وظاهر النص إنّ ضمير انهم لزكريا وزوجه ويحيى، أو لمن تقدم ذكره من الأنبياء (عليهم السلام)، وكُلهم فعلوا الخيرات رغبة في ثواب الله، ورهبة من عقابه، وكلهم كانوا مُنقادين له في كُل شيء (مغنية، ١٩٨١م، ٥: ٢٩٦).

وخلاصة ما تقدم أشار الله سبحانه إلى ثلاث صفات من الصفات البارزة لهذه الأسرة فقال :﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا** ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٠؛ ابن فارس، ب.ت، ٢: ٤١٥)، وكانوا لنا خاشعين والخشوع هو الخضوع المقرون بالاحترام والأدب ، وكذلك الخوف المشفوع بالإحساس بالمسؤولية، ثم إن ذكر هذه الصفات الثلاث ربما تكون إشارة إلى أن هؤلاء عندما يصلون إلى النعمة فلا يبتلون بالغفلة والغرور كما في الأشخاص الماديين من ضعفاء الإيمان، فهؤلاء لا ينسون الضعفاء المحتاجين على كل حال، ويسارعون في الخيرات ، ويتوجهون إلى الله سبحانه في حال الفقر والغنى، والمرض والصحة، وأخيرا فإنهم لا يبتلون بالكبر والغرور عند إقبال النعمة، بل كانوا خاشعين خاضعين أبدا،(مكارم الشيرازي، ب.ت، ١٠: ٢٣٧).

ثالثًا: اتساع آفاق الرجاء وتبديد ظلمات اليأس: لا شيء يعلو فوق النداء الإلهي الذي يحيي الأمل في الروح ويمنعها من السقوط في فخ اليأس، نحو قوله تعالى:﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ** ﴾ (سورة الزمر: ٥٣).

أي لا تيأسوا من مغفرة الله (ابن إدريس الحلي، ١٤٠٩هـ، ٢: ٢٣٥؛ الكاشاني، ١٤٢٣هـ، ٦: ٩٠؛ الحائري الطهراني، ١٣٣٧ش، ٩: ٢٢١)، والآية الكريمة فيها دعوة صريحة من الله للذين جاروا على أنفسهم بارتكاب الذنوب والمعاصي، دعوة منه تعالى إلى التوبة، ووعد بالعفو والصفح عن كل ذنب مهما كبر وعظم، وبهذا ترك سبحانه الباب مفتوحا أمام من يريد أن يكفّر عن سيئاته، ويصلح ما أفسد من نفسه، وفي الحديث: إنّ الله لا يمل حتى تملوا، فإذا تركتم ترك، أي إذا تركتم التوبة ترك المغفرة (ابن عربي، ب.ت، ٤: ٣٠٣)،

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

وفيه أيضا أنّ رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)، قال: ما أحب ان لي الدنيا بما فيها (الطوسي، ١٣٦٤ش، ٧: ٢٣٩؛ مغنية، ١٩٨١م، ٦: ٤٢٦).

وعند التدقيق في عبارات هذه الآية يبين أنها من أكثر آيات القُرآن الكريم التي تعطي الأمل للمُذنبين، فشموليتها وسعتها وصلت إلى درجة قال بشأنها أمير المُؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام):"ما في القُرآن آية أوسع من يا عبادي الذين أسرفوا..." (الطبرسي، ١٤١٥هـ، ٨: ٤٠٧).

والدليل على ذلك واضح من وجوه (مكارم الشيرازي، ب.ت، ١٥: ١١٧-١١٨):

١ - التعبير بـ يا عبادي هي بداية لطف البارئ عز وجل.

٢ - التعبير بـ (إسراف)، بدلًا من (الظُلم والذنب والجريمة)، هو لطف آخر.

٣ - التعبير بـ على أنفسهم يبين أن ذنوب الإنسان تعود كُلها عليه، وهذا التعبير هو علامة أخرى من علامات مَحبة الله لعباده، وهو يشبه خطاب الأب الحريص لولده، عندما يقول: لا تظلم نفسك أكثر من هذا.

٤ - التعبير بـ لا تقنطوا مع الأخذ بنظر الاعتبار أن القنوط يعني في الأصل اليأس من الخير (ابن فارس، ب.ت، ٥: ٣٢)، فإنها لوحدها دليل على أنّ المُذنبين يجب أن لا يقنطوا من اللطف الإلهي.

٥ - عبارة من رحمة الله التي وردت بعد عبارة لا تقنطوا تأكيد آخر على هذا الخير والمحبة .

٦ - عندما نصل إلى عبارة إن الله يغفر الذنوب التي بدأت بتأكيد، وكلمة الذنوب التي جمعت بالألف واللام تشمل كُل الذنوب من دون أي استثناء، فإن الكلام يصل إلى أوجه، وعندها تتلاطم أمواج بحر الرحمة الإلهية.

٧ - إنّ ورود كلمة(جميعًا)، كتأكيد آخر للتأكيد السابق يوصل الإنسان إلى أقصى درجات الأمل.

٨ و ٩ - وصف البارئ عزوجل بالغفور والرحيم في آخر الآية، وهما وصفان من أوصاف الله الباعثة على الأمل، فلا يبقى عند الإنسان أدنى شعور باليأس أو فقدان الأمل.

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

وخلاصة ما تقدم إن الآية المباركة تفتح نافذة الأمل اللامتناهي لإحياء الروح بعد الانكسار والذنوب.

المطلب الخامس: تجليات الرقابة الذاتية وآليات اليقظة الروحية

يمثل الدعاء في هذا السياق عملية استنفار شاملة للوعي الداخلي عبر استشعار القرب الإلهي المحيط بكل التفاصيل الدقيقة للنفس البشرية، ويمكن بيان تفاصيل هذا المطلب على النحو الآتي:

أولًا: القرب الوجداني وتكريس الرقابة الذاتية: يُرسخ القُرآن فكرة القرب المطلق الذي يتجاوز حدود المكان والزمان، نحو قوله تعالى:﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ (سورة ق: ١٦).

ففي خصوص هذه الآية قال الشريف الرضي(رحمه الله)" وأراد سبحانه أنه يعلم غيب الإنسان ووساوس إضماره، ونجيّ أسراره، فكأنه باستبطانه ذلك منه أقرب إليه من وريده؛ لأن العالم بخفايا قلبه، أقرب إليه من عروقه وعصبه، وليس القرب هاهنا من جهة المسافة والمساحة؛ ولكن من جهة العلم والإحاطة" (الشريف الرضي، ١٩٥٥م، ٣١٠).

وبتعبيرِ آخر" تنبيه على أنّ تعالى مطلع على مكنونات القلوب ما عسى يغفل عنه صاحبها، أو حثّ على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها، قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت أو غيره، أو تصوير وتخييل لتملّكه على العبد قلبه، فيفسخ عزائمه ويغيّر مقاصده، ويحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته ، وبينه وبين الإيمان إن قضى شقاوته" (المشهدي، ١٤٠٧هـ، ٥: ٣١٦).

وللمُتتبع يجد ما أبلغ من هذا التعبير في الآية المُباركة فحياتنا الجسمانية مُتعلقة بعصب يوصل الدم إلى القلب ويخرجه منها بصورة منتظمة وينقله إلى جميع أعضاء البدن، ولو توقف هذا العمل لحظة واحدة لمات الإنسان، فالله أقرب إلى الإنسان من هذا العصب المُسمى بحبل الوريد، وهذا ما أشار إليه القُرآن في مكان آخر إذ قال:﴿ **أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ (سورة الأنفال: ٢٤)، وبالطبع فإن هذا كله تشبيه تقريبي،

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

والله سبحانه أقرب من ذلك وأسمى رغم كون المثال المذكور أبلغ تصوير محسوس على شدة القرب، فمع هذه الإحاطة لله تعالى بمخلوقاته، وكوننا في قبضة قدرته، فإن تكليفنا واضح ، فلا شئ يخفى عليه لا الأفعال ولا الأقوال ولا الأفكار والنيات ولا تخفى عليه حتى الوساوس التي تخطر في القلوب (مكارم الشيرازي، ب.ت، ١٧: ٢٣).

وخلاصة ما تقدم أن الآية تُرسخ شعور القرب الذي يجعل الإنسان يستحي من المخالفة في أعماق نفسه.

ثانيًا: إحاطة العلم الإلهي بالسرائر وخفايا البصائر: ففي بعض نصوص الذكر الحكيم تأكيد على أن العلم الإلهي يحيط حتى بما تخفيه النظرات والضمائر، نحو قوله تعالى:﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾ (سورة غافر: ١٩).

"أي إنّه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في السماوات ويعلم خيانة الأعين الخائنة وهو الرمز بالعين والخائنة مصدر كالخيانة مثل الكاذبة واللاغية بمعنى الكذب واللغو ويعلم ما تخفي الصدور ومضمرات القلوب فحينئذ يعلم الأفعال الخفيّة من الجوارح فضلا عن الجليّة وأفعال القلوب والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحدّ كان خوف المذنب منه شديدا جدّا وقيل: الخائنة صفة النظرة إلى ما لا يحلّ" (الحائري الطهراني، ١٣٣٧ش، ٩: ٢٥٣).

إنّ الله تبارك وتعالى يعلم الحركات السرية للعيون وما تخفيه الصدور من أسرار، وسيقوم تعالى بالحكم والقضاء العادل عليها، وهو بعلمه سيجعل صباح الظالمين المذنبين مظلمًا، وعندما سئل الإمام الصادق(عليه السلام)، عن معنى الآية فأجاب:"ألم تر إلى الرجل ينظر إلى الشيء وكأنه لا ينظر إليه، فذلك خائنة الأعين" (الصدوق، ١٣٧٩هـ، ١٤٧)، أي يوهم أنه لا ينظر إليه (مكارم الشيرازي، ب.ت، ١٥: ٢٣١).

قد يتطاول البعض بنظره إلى أعراض الناس وإلى ما يحرم النظر إليه، وقد يستطيع الفاعل أن يخفي فعلته عن الآخرين؛ لكن ذلك لا يخفى عن علم الله المحيط بكل ذرات الوجود إذ:﴿ **لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ** ﴾ (سورة سبأ: ٣).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

وقد روي أنه لما جئ بعبد الله بن أبي سرح إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، بعد ما اطمأن أهل مكة وطلب له الأمان عثمان صمت رسول الله طويلا ثم قال (نعم)، فلما انصرف قال رسول الله لمن حوله:"ما صمت طويلًا إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه" فقال رجل من الأنصار: فهلا أومأت إلي يا رسول الله، فقال:"إن النبي لا تكون له خائنة الأعين" (ابن واقد، ١٤٠٥هـ، ٢: ٨٥٦).

وإنّ من يُؤمن بالحساب الدقيق في الآخرة ، عليه أن يراعي حدود التقوى في خائنة الأعين وخطرات الفكر، وواضح أن استحضار عناصر الرقابة هذه لها مُؤداها التربوي الكبير في سلوك الإنسان وحياته، وفي قصص الوعظ المتداولة في مجالس العلماء، يقال أن أحد كبار العلماء عندما أنهى دراسته الدينية في النجف الأشرف، طلب من أستاذه عندما أراد الرجوع إلى بلده أن يعظه وينصحه، فقال له الأستاذ: بعد كل هذا التعب وتحمل مضاق الدراسة والتحصيل فإن آخر نصيحتي لك هي أن لا تنسى أبدا قوله تعالى:﴿ **أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى** ﴾ (سورة العلق: ١٤).

فالمؤمن الحقيقي يعتبر العالم كله حاضرا عند الله تعالى، وإن كل الأعمال تتم في حضوره، وينبغي لهذا الحضور الإلهي أن يكون رادعا كافيا للخجل والكف عن المعاصي والذنوب (مكارم الشيرازي، ب.ت، ١٥: ٢٣٣).

فالله تعالى سميع وبصير بمعنى الكلمة، أي إن كُل المُسموعات والمبصرا حاضرة عنده، وهذا تأكيد على إحاطته وعلمه بكل شئ ، وقضاوته بالحق، إذ ما لم يكن الشخص سميعا وبصيرا مطلقا فلا يستطيع أن يقضي بالحق (مكارم الشيرازي، ب.ت، ١٥: ٢٣٤).

وخلاصة ما تقدم أن الآية الكريمة تُحذر الوجدان من أن الله مطلع على أدق النظرات وأخفى الخطرات.

ثالثًا: يقظة المتقي في مواجهة الطوارئ النفسية: يَصف القرآن حالة الوعي التي تحمي المؤمن من الانزلاق خلف نزوات الشيطان، نحو قوله تعالى:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** ﴾ (سورة الأعراف: ٢٠١).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

فالآية الشريفة تقول ما من انسان إلا وتنازعه اندفاعات نفسية، بعضها عاطفي، وبعضها عقلي، وبعضها ديني، وفي الأغلب ينهزم الدين والعقل أمام العاطفة؛ لأنها تنبع من ذات الإنسان، وتلازمه منذ تكوينه في بطن أمه، والعقل مُتأخر عن العاطفة في الوجود (الحائري الطهراني، ١٣٣٧ش، ٥: ٦٠؛ الطباطبائي، ب.ت، ١٩: ٣٦١)، وهو ينمو بالدرس والتجربة، أما الدين فنزل لترويض العاطفة وكبح جماحها، فهو أضعف العوامل والإنفعالات..، اللهم إلا إذا اقتنع الإنسان به اقتناعه بنفسه وكيانه، بحيث لا يرى لنفسه وجودا سعيدا إلا بالدين والعمل بأحكامه، وهذا النوع من المتدينين هم الذين يتغلب دينهم على ميولهم، وهم المعنيون بقوله تعالى:﴿ **إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا** ﴾ (سورة الأعراف: ٢٠١)، أي إذا أغراهم الشيطان بمعصية الله، أو وسوست لهم النفس الأمارة بذلك تذكروا ما أمرهم الله به، وما نهاهم عنه :﴿ **فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ** ﴾ (سورة الأعراف: ٢٠١)، مكائد الشيطان ووسوسة النفس، فيحجمون عن المعصية، ويتغلب دينهم على أهوائهم (مغنية، ١٩٨١م، ٣: ٤٤٠).

وخلاصة ما تقدم أن الآية الشريفة تهدف لتصفية الروح من شوائب الغل لتحقيق السلم الإجتماعي الوجداني.

رابعًا: استحضار الشاهد في لحظات التفرد: ففي هذا المقصد يربي الإمام(عليه السلام)، الوجدان على أن الله ليس غائبًا عن لحظات الخلوة، نحو قوله:"اتَّقُوا مَعَاصِيَ اللهِ فِي الْخَلَوَاتِ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الْحَاكِمُ" (نهج البلاغة، ١٤١٢هـ، ٤: ٧٧).

فالأمام(عليه السلام):" أمر بالخشية من معاصي الله، ونفّر عنها بضمير صغراه قوله: فإنّ الشاهد هو الحاكم، وتقدير كبراه، وكلّ من كان الشاهد عليه هو حاكمه وجب عليه أن يتّقيه" (ابن ميثم البحراني، ١٣٦٢ش، ٥: ٤٠٤).

أي أن الإمام(عليه السلام)، "حذّر عليه السّلام عن ارتكاب المعاصي بأنها تقع على منظر من الله البصير بكلّ خافية وهو الّذي يحكم على العاصي في يوم الدّين ، فويل على

مجرم يكون شاهد جرمه هو القاضي نفسه، فهل له سبيل إلى البراءة من الجرم والتفصّي من المجازاة" (الخوئي، ب.ت، ٢١: ٤١٣؛ مغنية، ١٤٢٧هـ، ٤: ٤٠٩).

وخلاصة القول تضع الإمام(عليه السلام)، ميزاناً أخلاقياً يجعل الوجدان مرآة لمشاعر الآخرين وحقوقهم.

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث، يتوجب علينا تقديم آيات الشكر والثناء للمولى القدير الذي أنار لنا سبل البحث ومنّ علينا بمدد العون لإتمامه، لنخلص في نهايته إلى جملة من النتائج الجوهرية التي يمكن إجمالها فيما يأتي:

١- إنّ الدعاء في المنظور القرآني هو مخ العبادة والوسيلة المُثلى لتحقيق العبودية الواعية.

٢- إن الإعتراف بالإفتقار يحرر الإنسان من نرجسيته ويفتح قلبه لإستقبال الأنوار الروحية.

٣- إنّ السكينة الناتجة عن الدعاء تُمثل حصانة نفسية ضد الإنهيار في الأزمات الوجودية.

٤- إنّ تهذيب عواطف الحب والخوف والرجاء يَخلق شخصية متزنة بعيدة عن الإفراط والتفريط.

٥- إنّ الرقابة الذاتية المُستمدة من استشعار القرب الإلهي هي الضمانة الحقيقية لإستقامة السلوك.

٦- إنّ بلاغة النص الدعائي في القُرآن الكريم ونهج البلاغة تساهم بشكل مُباشر في رقة الذائقة الروحية.

٧- إن تحول الدعاء إلى منصة للتفريغ الإنفعالي يسهم في التسامي بالأوجاع وتحويلها إلى طاقة بناءة.

٨- إن الحس الروحي العميق هو الثمرة النهائية لدوام الإتصال الوجداني بالخالق عبر الدعاء.

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

المصادر والمراجع

القُرآن الكريم

١. أبي الحسن مُحَمَّد بن الحُسين بن مُوسى المُوسوي البغدادي المعروف بالشريف الرضي. (١٩٥٥م). تلخيص البيان في مجازات القُرآن (الإصدار ١). (مُحَمَّد عبد الغني حَسن، المحرر) القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

٢. أبي جعفر مُحَمَّد بن علي بن الحُسين بن بابويه القمي. (١٣٧٩هـ). معاني الأخبار. (علي أكبر الغفاري، المحرر) قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين.

٣. أبي عبد الله محمد بن علي المعروف بابن عربي الحاتمي الطائي. (ب.ت). الفتوحات المكية. بيروت: دار صادر.

٤. أحمد بن فارس بن زكريا(ت٣٩٥هـ). (ب.ت). مُعجم مقاييس اللغة. (عبد السلام مُحَمَّد هارون، المحرر) قم: مكتبة الإعلام الإسلامي.

٥. إسماعيل بن حماد الجوهري(ت٣٩٣هـ). (١٩٨٧م). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (الإصدار ٤). (أحمد عبد الغفور عطار، المحرر) بيروت: دار العلم للملايين.

٦. الإمام سيد الساجدين علي بن الحُسين زين العابدين. (١٤١٨هـ). الصحيفة السجادية (الإصدار ١). دفتر نشر الهادي.

٧. الحلي. (ب.ت). (غير مذكور). (أحمد الموحدي القمي، المحرر) مكتبة وجداني.

٨. السيد رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس. (١٤١٤هـ). إقبال الأعمال (الإصدار ١). (جواد القيومي الأصفهاني، المحرر) مكتب الإعلام الإسلامي.

٩. السيد عبد الله شبر. (١٩٦٦م). تفسير القُرآن الكريم (الإصدار ٣). (الدكتور حامد حفني داود، المحرر) السيد مُرتضى الرضوي.

١٠. السيد مُحَمَّد الحسيني الشيرازي. (٢٠٠٣م). تقريب القُرآن إلى الأذهان (الإصدار ١). بيروت: دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع.

١١. السيد مُحَمَّد الحسيني الشيرازي. (ب.ت). توضيح نهج البلاغة. طهران: دار تراث الشيعة.

١٢. السيد مُحَمَّد حُسين الطباطبائي. (ب.ت). القُرآن في الإسلام. (السيد أحمد الحسيني، المحرر)

١٣. السيد مُحَمَّد هادي الميلاني. (١٤٢٦هـ). قادتنا كيف نعرفهم (الإصدار ١). (السيد مُحَمَّد علي الميلاني، المحرر)

١٤. السيد هاشم الحسيني البحراني. (ب.ت). البرهان في تفسير القُرآن. قم.
١٥. الشيخ أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن إدريس الحلي. (١٤٠٩هـ). المُنتخب في تفسير القُرآن (الإصدار ١). (السيد مهدي الرجائي، المحرر) قم: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي.
١٦. الشيخ أبي جعفر مُحَمَّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي(ت٣٢٩هـ). (١٣٦٣ش). الكافي (الإصدار ٣). (علي أكبر غفاري، المحرر) دار الكتب الإسلامية.
١٧. الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي. (١٤١٨هـ). تفسير جوامع الجامع (الإصدار ١). (مُوسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، المحرر) قم.
١٨. الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي(ت٥٤٨هـ). (١٩٩٥م). تفسير مجمع البيان (الإصدار ١). (المُحققين، و الأخصائيين، المحررون) بيروت: مُؤسسة الأعلمي.
١٩. الشيخ حسن المُصطفوي. (١٤١٧هـ). التحقيق في كلمات القُرآن الكريم (الإصدار ١). مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.
٢٠. الشيخ مُحَمَّد بن الحَسن الطوسي(ت٤٦٠هـ). (١٣٦٤ش). تهذيب الأحكام (الإصدار ٣). (السيد حَسن المُوسوي الخرسان، المحرر) طهران: دار الكتب الإسلامية.
٢١. الشيخ مُحَمَّد بن الحسن الطوسي(ت٤٦٠هـ). (١٤٠٠هـ). الإقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد. طهران: منشورات مكتبة جامع جهلستون.
٢٢. الشيخ مُحَمَّد بن الحسن الطوسي(ت٤٦٠هـ). (١٤٠٩هـ). التبيان في تفسير القُرآن (الإصدار ١). (أحمد حبيب قصير العاملي، المحرر) مكتب الإعلام الإسلامي.
٢٣. الشيخ مُحَمَّد بن الحسَن الطوسي(ت٤٦٠هـ). (١٩٩١م). مُصباح المُتهجد (الإصدار ٢). بيروت: مُؤسسة فقه الشيعة.
٢٤. الشيخ مُحَمَّد بن علي بن مُوسى بن بابويه القمي الصدوق(ت٣٢٩هـ). (ب.ت). الخصال. (علي أكبر الغفاري، المحرر) قم: مُؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المُدرسين.
٢٥. الشيخ مُحَمَّد بن مُحَمَّد رضا القمي المشهدي. (١٤٠٧هـ). تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب (الإصدار ١). (حُسَين درگاهي، المحرر) مُوسسة الطبع والنشر وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي.
٢٦. الشيخ مُحَمَّد جواد مُغنية. (١٤٢٧هـ). في ظلال نهج البلاغة (الإصدار ١). انتشارات كلمة الحق.
٢٧. الشيخ مُحَمَّد جواد مُغنية. (١٩٨١م). التفسير الكاشف (الإصدار ٣). بيروت: دار العلم للملايين.
٢٨. الشيخ مُحَمَّد جواد مغنية. (١٩٨٣م). التفسير المُبين (الإصدار ٢). مُوسسة دار الكتاب الإسلامي.
٢٩. الشيخ ناصر مكارم الشيرازي(ب- ط وت). (ب.ت). الأمثل في تفسير كتاب الله المُنزل.

٣٠. العلامة السّيّد مُحَمَّد حُسين الطباطبائي. (ب.ت). الميزان في تفسير القُرآن. قم: مُوسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين.

٣١. المُحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي. (ب.ت). منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة (الإصدار ٤). (سيد إبراهيم الميانجي، المحرر) بنياد فرهنگ امام المهدي (عجل الله فرجه الشريف).

٣٢. المُلا فتح الله بن شكر الله الشريف الكاشاني. (١٤٢٣هـ). زبدة التّفاسير (الإصدار ١). (مُوسسة المعارف، المحرر) قم: مُوسسة المعارف الإسلامية.

٣٣. جمال الدين أحمد بن مُحَمَّد بن فهد. (ب.ت). عدة الداعي ونجاح الساعي.

٣٤. جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري(ت٧١١هـ). (ب.ت). لسان العرب. أدب الحوزة.

٣٥. خطب الإمام علي بن أبي طالب(ت٤٠هـ). (١٤١٢هـ). نهج البلاغة (الإصدار ١). (الشيخ مُحَمَّد عبده، المحرر) قم: دار الذخائر.

٣٦. زين المُحدثين مُحَمَّد بن الفتال النيسابوري. (ب.ت). روضة الواعظين. (السيد مُحَمَّد مهدي السيد حَسن الخرسان، المحرر) قم: منشورات الشريف الرضي.

٣٧. عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت١٧٥هـ). (١٤٠٩هـ). كتاب العين (الإصدار ٢). (مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، المحررون) دار الهجرة.

٣٨. كَمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني. (١٣٦٢ش). شرح نهج البلاغة (الإصدار ١). (عدة من الأفاضل، وقوبل بعدة نسخ موثوق بها، المحررون) قم: مركز النشر مكتب الاعلام الإسلامي.

٣٩. محسن الفيض الكاشاني. (١٤١٦هـ). التفسير الصافي (الإصدار ٢). (الشيخ حسين الأعلمي، المحرر) طهران: مكتبة الصدر.

٤٠. مُحَمَّد بن علي بن شهرآشوب المازندراني. (ب.ت). مُتشابه القُرآن ومُختلفه.

٤١. مُحَمَّد بن عمر بن واقد. (١٤٠٥هـ). المغازي. (الدكتور مارسدن جونس، المحرر) نشر دانش اسلامي.

٤٢. مولي مُحَمَّد صالح المازندراني. (٢٠٠٠م). شرح أصول الكافي (الإصدار ١). (الميرزا أبو الحَسن الشعراني، والسيد علي عاشور، المحررون) بيروت: دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

٤٣. مير سيد علي الحائري الطهراني. (١٣٣٧ش). تفسير مُقتنيات الدرر. الشيخ مُحَمَّد الآخوندي مدير دار الكتب الإسلامية.